

الهجنة وتضاد الخطابات في رواية "القاهرة الصغيرة" لعمارة لخص.

The hippocampal and The opposition of Discourses in "Little Cairo" a novel by Amara Lakhous.

طالب دكتوراه / بوزيدي حمزة

الدكتوراه / عقيلت بليل محجوب

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة محمد أمين دباغين - سطيف 2 - سطيف (الجزائر)

مخبر السرديات والأنساق الثقافية، جامعة سطيف 2.

hamzabouzidi222@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/11/17 تاريخ القبول: 2020/04/22 تاريخ النشر: 2020/11/30

ملخص:

تستحضر رواية "القاهرة الصغيرة" جملة من الخطابات المتفاعلة المميزة لفضاءات الهجنة وعوالم الهجرة والمهاجرين، عبر حوارية تؤطر نوعا من الصراع بين الأقليات المهاجرة والسكان الأصليين، كما تُحاول تفكيك بعض المقولات والصور النمطية التي تطال الجالية العربية في البلدان الغربية.

وعليه تطرح هذه الرواية إشكالية الصراع الحضاري وما يستدعيه من تمثيلات للآخر والرد عليه عن طريق الكتابة، لخلق نوع من التوازن على مستوى المنظومة التمثيلية، والتخفيف من حدة الحمولات التاريخية والثقافية بين الطرفين.

الكلمات المفتاحية: الهجنة; الهجرة; الأقليات; الآخر; الكتابة.

Abstract:

The novel "Little Cairo" evokes a series of interactive rhetoric of the hippocampal spaces and the worlds of migration and immigrants by virtue of a dialogue that frames a kind of conflict between immigrant minorities and indigenous populations. It, likewise, attempts to break up some of the claims and the stereotypes that surround the Arab community in Western countries. Thus, this novel raises the problem of

civilizational conflict and its call for representations of the other and response-giving through the writing medium for the ultimate objective of creating a dialogue and alleviating the historical and cultural burdens between the two parties.

key words: the hippocampal; the migration; the minorities; the other; the writing.

1. مقدمة:

عكست مفاهيم الهجرة والمنفى واللجوء الكثير من القضايا ذات الصيغة التفاعلية بين الذوات بمختلف مشاربها الثقافية والإيديولوجية، وتركيباتها الدينية والعرقية، لعل في مقدمتها تمثيلات اللقاء بين الأنا والآخر، بما يتخلله من تعقيدات ومضاعفات صغيت عبر تراتبية زمنية، بتأطير سياسي إيديولوجي ساهم في تشنج العلاقات بين الطرفين من جهة، وفي خلق عالم طبقي يدور فيه الهامش في فلك مركز نموذجي مُسيطر على الأحداث من جهة أخرى. انطلاقاً من هذا الواقع المأزوم يُحاول السرد من خلال مُمكناته التخيلية تفكيك خطابات الذوات بِرَدِّهَا إلى مرجعياتها الأصلية، وتَسف الكليشيهات النمطية المزيفة التي رُوِّجَ لها منذ عصر السُرود الإمبراطورية.

ضمن هذا النسق السردى تندرج رواية "القاهرة الصغيرة" للروائي الجزائري "عمارة لخص" الذي عكف في مشروعه الروائي على تتبع حيوات المهاجرين من المهدي إلى اللحد، خاصة ما تعلق منها بتلك الأماكن البينية الهجينة في بلدان الضيافة بالقارة الأوروبية، راصداً مجموعة من الخطابات المتضاربة بين طائفة من المهاجرين المنبوذين والسكان الأصليين، في حي "ماركوني" بالعاصمة الإيطالية روما. وعليه يتمحور هذا المقال حول الإشكالية التالية: ما هي أهم الخطابات والخطابات المضادة التي تقترحها الرواية؟ وكيف تم التمثيل والإحالة على مرجعيات الذوات من خلال هذه الخطابات؟.

2. أدب الهجرة والخطاب المضاد:

لم يعد الخطاب الروائي المعاصر مُجرد لعبة لغوية تعبر عن أحاسيس ومشاعر الروائي، وإنما غدا خطاباً من نوع آخر "إنه خطاب مُتخيل يلجأ إليه الكاتب للتعبير عن الكتابة الأدبية المنبثقة عن إشكالات ومفاهيم جديدة طرحها تلك العلاقة الخاصة بين كل من البلدان العربية وشعوب العالم الثالث وبين خطابات وأدبيات شعوب العالم الغربي، في ظل التحولات الجديدة

والمتسارعة سواء الثقافية أو الإقتصادية أو السياسية... ما طرح جملة من المقولات الأساسية على نحو: الهوية والغيرية والذاكرة والدولة الوطنية والأمة والهجرة وغيرها مما يُؤطر مَقولتي الحوار والصراع الثقافي¹. يطمح هذا المتخيل إلى تمثيل صورة الأنا في علاقتها بالآخر.

ومن هنا تتضح بصورة جلية خطورة السرد كأداة للمقاومة الثقافية والقوة التمثيلية " حيث يَسودُ خطابٌ للهيمنة يقوم بفرض تمثيلاته وسردياته على الآخر، ينهض في مواجهته خطاب مُضاد، ينزع إلى التحرر من إطار التمثيلات السيئة، وذلك بإعادة امتلاك قُوّة التمثيل، التي تتيح له بناء سرديات بديلة². تكون غايتها تقويض وتفكيك الخطابات والسُّرود المركزية وإزاحتها لصالح سرديات الهامش.

وعليه فهذا النوع من الكتابة هو بمثابة نضال سياسي ثقافي يهدف إلى إعادة بناء الذات وتحسين صورتها وقد اختلفت تسميات هذا النوع من السرد " بين السرد المضاد، والخطاب النقيض، والسرد المقاوم، ولكن على اختلاف التسمية فإن المسعى يُبرز المقاومة الرمزية التي تقوم على منظومات خطابية وتمثيلية، حيث تغدو اللغة ونظامها التعبيري مسرحاً لممارسة فكرة المقاومة، وتؤكد كذلك على السلطة التمثيلية للسرد الروائي³. تعمل هذه السلطة على نفي تمثيلات النقص والإزدراء، لتحل محلها التمثيل الحقيقي.

وتهدف هذه السرديات المضادة إلى رد الإعتبار، لأنه على مُستوى الصراع بين الثقافات والهويات " تعتمد الثقافات المهيمنة إلى إنتاج تمثيل انتقاصي عن الثقافات الخاضعة والمنضوية، بحيث يُناتق بهذا التمثيل مسؤولية إبقاء المهيمن مهيمناً، والخاضع خاضعاً. غير أن الصراعات في دنيا الواقع قد تخترق مثل هذه التمثيلات وتعمل على قلب الأدوار بين المهيمن والخاضع، فيظهر الخاضع في دور القوي والمنتصر، في حين يتحول المهيمن إلى ضعيف مهزوم⁴. فالمسألة إذن هي لعبة تمثيل لغوي قادر على الإختراق ومن ثم الإزاحة والتحويل والإمتلاك.

وهو ما جعل الناقد العراقي عبد الله إبراهيم يُؤكد على أن مفهوم التمثيل الذي جاء به إدوارد سعيد في غاية الأهمية؛ إذ كان له " دور بالغ الأهمية في كشف تورط الرؤى وهي تعيد صوغ المرجعيات الثقافية على وفق موقف نمطي ثابت يُحيل على تصور جامد ذي طبيعة جَوهرائية مُغلقة، الأمر الذي أفضى إلى سلسلة من عمليات التمثيل التي يمكن اعتبارها وثائق رمزية دالة على العلاقة بين المرجع الفكري وتجلياته الخطابية⁵. وبالتالي فلا مناص من تمثيل مُضاد يُعيد ترتيب نوعية العلاقة بين المهيمن والمهيمن عليه، ويزيح ترسُّبات المخيال الثقافي الغربي عن كل ما هو شرقي أو عربي أو إفريقي.

3. المهاجرون وفضاءات الهجئة:

تتميز مرحلة ما بعد الإستعمار وما تبعها من بدايات الألفية الثالثة بتزايد رهيب في أعداد المهاجرين والمشردين والمنفيين والمشتتين الذين يقصدون الدول الأوروبية لتحسين ظروفهم أو للهروب من ويلات الحروب التي تنخرُ بلدانهم. هذا الفعل تعبير " عن التعاسة التي يحياها الفرد في المجتمع، عندما تنحسر الآفاق أمام وعيه، ويصبح مُستقبله بمثابة سَراب مُتصحر يجري وراءه دون بلوغه. فيفر نحو ما يعتبره سَعياً نحو موطن أفضل أو خلاصاً من تعاسة الذات"⁶. ورغبة في الوصول إلى الجنة الأوروبية التي طالما سمع عنها ولم تحن الفرصة لبلوغها.

وعندما يصل المهاجر إلى بلد الآخر يجد نفسه يتقاسم الفضاء مع أشخاص آخرين يتمثلون معه ويختلفون عنه، وهو ما يلاحظه بطل رواية " القاهرة الصغيرة " " عيسى "، إذ يصف لحظة وصوله إلى إيطاليا فيقول:

" أمعنت في تأمل واجهة العمارات، فلاحظت تنوعاً كبيراً كالتنوع في الوجوه التي تمر أمامي. أشكال آدمية من كل الأنواع والأجناس: شباب أفارقة وأسويون يبيعون سلعا مقلدة على قارعة الطريق، أطفال عرب يتجولون مع آبائهم وأمهاتهم المحجبات، عجريات في ملابسهن الطويلة المتنافرة الألوان يطلبن صدقة المحسنين"⁷.

في إيطاليا من بين الوجّهات المفضلة لكثير من الشعوب المهاجرة. وبعد حصوله على سكن مع جماعة من المهاجرين العرب والأفارقة المسلمين وغير المسلمين يتفاجئ بكثرة الوافدين إلى العمارة التي يقطنها والمسماة بـ" القاهرة الصغيرة"، جنسيات مختلفة من كل بقاع الأرض مع اختلاف في وضعياتهم القانونية بين مهاجرين شرعيين وغير شرعيين، إضافة إلى إيطاليين أصليين وآخرين من الجنوب الإيطالي... إنه مجتمع الفضاء الهجين والتعددية الثقافية، شعوبٌ تتميز كل منها " بثقافة متراكمة اكتسبتها عبر التاريخ حتى صارت جزءاً من حياتها وتاريخها ومنجزاتها وقيمها ورموزها مما يسمها بهوية ثقافية خاصة بها ولكن في إطار التعددية الثقافية لا بد من التجانس وعدم طغيان ثقافة على حساب أخرى"⁸. لتحقيق نوع من الإنسجام الثقافي.

معنى هذا أن التعددية الثقافية لا تقتصر في حقيقتها على تواجد مجموعات بشرية متميزة ثقافياً عن بعضها البعض، تتشارك حيزاً جغرافياً واحداً، بل تأخذ مسألة التعددية بعداً آخر أكثر عمقا يتمثل في تأكيد الخصوصية واحترام الثقافات الأخرى لأن " الروح التعددية الثقافية esprit multiculturaliste تكمن، تحديداً، في هذا التمثيل

الديموقراطي القائم على مبدأين يصعب، مع ذلك، الموازنة بينهما، هما (الإعتراف بالخصوصية الثقافية) واحترام (القيم العالمية)⁹.

ومع ذلك فهذا التعدد الثقافي قد يطرح أزمة ثقافية أو أزمة مواطنة من نوع ما، يقول الباحث "هوغ لاغرانج" في كتابه نكران الثقافات: "إذا كان هناك اليوم مشكلة ثقافية فعلية في أحياء الهجرة، فهي لا تتمثل بثبات ثقافات الأصل، بقدر ما تتمثل في المعايير والقيم المتولدة من الصدام مع مجتمعات الإستقبال. إنها ظروف تجربة الهجرة، وهذا اللقاء المعقد والمؤلم المنسوج غالباً من الصراعات والحرمان، هو ما يولد القسم الكبير من المصاعب"¹⁰. خاصة على الأصعدة الثقافية منها.

ورغم أن فكر الهجنة على المستوى النظري ماهو إلا "ضرب من ضروب المجاوزة للإنغلاق الذي ينهض عليه الفكر الهوي، نتاجاً لحركات ثقاف إنساني ونمط من الفضاء الحر، عنوانه التأسيس لهوية عالمية تقوم على التنوع"¹¹. فإن اختلاف البنيات الذهنية والصور النمطية التي يشكلها كل طرف عن الطرف الآخر والمبنية في الأساس على خلفيات هوية تنزع إلى الإنغلاق أكثر من نزوعها إلى الإنفتاح والتعدد والتألف والإنسجام تجعل الفرد المهاجر يشعر "بتخلخل المكان والقلق الأبدي، لا سيما إذا ما تعلق ذلك بعمليات التهجين الثقافي التي تقتضي انخلاع الشخص من دوائره الحميمة واستزراعه في بيئة غير بيئته"¹². هذه البيئة المستقطبة لعدد الهويات والجنسيات من كافة بقاع الأرض.

4. الخطابات والخطابات المضادة:

يطرح الفيلسوف الهندي (هومي بابا) سؤالاً مهماً عن الكيفية التي تُصاغ بها استراتيجيات التمثيل أو امتلاك القوة في دعاوى الجماعات المتنافسة؛ التي تقوم -في اعتقاده- على أسس تناحرية صراعية. والإجابة على مثل هذا التساؤل يُمكن أن تُوضح الكثير من الأنساق التي تتوارى خلف الخطابات المختلفة المتبادلة في هذه الأماكن البينية والفضاءات الهجينة، كما يفترض هومي بابا أن "تشابكات الإختلاف الثقافي الحدودية يُمكن أن تكون قائمة على التراضي والإجماع بقدر ما يُمكن أن تكون قائمة على الصراع"¹³.

لقد أنبأت المرحلة الما بعد إستعمارية عن تغيير في أنواع الصراع فلم يعد الصراع "صراع طبقات، كما افترض ماركس، ولا صراع حضارات كما يفترض هنتغتون، ولا صراع أديان، أو

حرب باردة بين معسكرين، بل صراع هويات وسرديات¹⁴. تجري في الوطن الواحد أو في مختلف المناطق البيئية باصطلاح هومي بابا.

من هذا المنطلق، يجدر بنا التنويه إلى أن " الوعي المعاصر يقتضي الإنتباه إلى تجربة المنفى والهامش والإخضاع، والشتات كتجارب فاعلة وتاريخية، ومنتجة في ذات الوقت لرؤية مختلفة للحياة ولل فكر والنقد والخطاب، وهي جزء لا يتجزأ من المشهدية العامة التي تميز الخارطة الفكرية في العالم"¹⁵. ويكادُ المُطلع على رواية "القاهرة الصغيرة" للروائي عمارة لخص يُدرك تعدد الخطابات بين الهامش والمركز، ومن بين أهم الخطابات والخطابات المضادة التي تشتمل عليها الرواية ما يلي:

1.4 الخطاب الإعلامي بين العدائية والإنصاف:

تقول المهاجرة " صوفيا " أنها بينما كانت تقوم بالشؤون المنزلية وهي تستمع إلى الراديو لفت انتباهها برنامج على إحدى القنوات العمومية يدور موضوعه حول الإسلام والإرهاب، وذلك بحضور خبيرين مُختصين. وقد استوقفها تعليق أحدهما قائلاً:

" إن الشرمتجذر في الإسلام وقد أنتج العنف والصراعات على مر القرون. الطامة الكبرى هي أن المسلمين لا يعرفون معنى الحب " ولكن الضيف الثاني رد عليه: " لقد استخدم المسيحيون واليهود والهندوس وغيرهم العنف باسم الدين. كيفينا نحن الكاثوليك ذكر محاكم التفتيش في القرون الوسطى"¹⁶.

يبدو أن هذا الخطاب بالرغم من خُلُوه من طرف عربي كُفيلٌ بتوضيح الصورة التي يحملها الآخر الغربي عن الذات العربية المسلمة، هذه الصورة تتراوح بين التطرف والإعتدال؛ إذ يبني الطرف الأول صورة للإسلام بطريقة تعسفية مُعادية تعتمد على محاكمة تاريخية إقصائية للآخر، تقوم على نوع من الإزاحة والتشويه والطمس، إنها " رؤية ضيقة وملينة بالكليشيهات والأحكام المسبقة يحملها الآخر في مخياله وينسج حولها كونا من الإشارات والنوعوات ليستدل بها على الأنا رغبة منه في إبقاء هذه الأخيرة في دائرة الإنغلاق والإنحسار"¹⁷. ومن ثمة سهولة إختراقها وإخضاعها والهيمنة عليها ولورمزيا.

بينما ينم الخطاب الثاني عن نظرة مُعتدلة تُوازن كل طرف بما له وما عليه، في سياق المقارنة التاريخية بين الطرفين، ولذلك اكتفت " صوفيا " بالتعجب من الحكم النهائي الخطير

الذي يُقر به الطرف الأول في حق المسلمين؛ إذ يعتبر أنهم لا يعرفون معنى الحب. مُؤكد أن هذا الحكم يجعل من المسلمين غير صالحين للتواجد مع هؤلاء، تقول في هذا الصدد:

" هذا حكم نهائي في منتهى الخطورة لا يقبل الإستئناف. ومعناه أننا حيوانات وهمج ولا نمت للإنسانية بصلة. لذلك ليس لنا الحق في الوجود؟"¹⁸.

والواضح أن بعض وسائل الإعلام الأوروبية تناقض مبادئ وقيم السلام والحوار العالمي التي تنص عليها لائحة الشعارات والقوانين الوهمية لهيئة الأمم المتحدة، سواء بقصد أو بغير قصد، وذلك " لأن عملية التبني الغشيم والإقتباس الدارج لفكرة العربي بوصفه عدوا من شأنها أن تحد من رؤيتنا وأن تطمس الحقيقة. وتلك الأخبار الهلالية التي تروج لها عناوين الأخبار، ويتم التقاطها وتكرار إذاعتها بواسطة المحطات الإخبارية العالمية إنما تدفع بالمزيد من سوء الفهم"¹⁹. وبالتالي إجهاض كل محاولات إرساء دعائم التعدديات الثقافية في دول أوروبا.

إن هذه الشعارات السياسية المتضاربة بين الشرق والغرب كما يقول المفكر جورج طرابيشي من بين شعارات رفض الآخر التي أصبحت " تكتسح الساحة السياسية والثقافية، هناك في الغرب تحت لواء العنصرية، وهنا في الشرق تحت لواء الأصولية. وفي الحالتين كليهما صدور عن مركزية أنوية عصابية وإفقارية متشبثة بمفهوم سلبي عن الهوية المؤسسة على نفي الآخر"²⁰.

مثل هذه الأحكام والصور التي يتمثلها الآخر الغربي عن المسلمين ليست وليدة العصر الراهن، وإنما تمتد إلى نهايات القرون الوسطى وما حملته الحروب الصليبية من توترات ومواجهات عنيفة، ما جعل العلاقة بين الطرفين " تتميز بالحيطة والحذر؛ لدرجة أن صورة الآخر تغدو تخطيطية فقيرة بسبب الإصرار المتواصل على إغفال واقعيته لصالح تمثيل تسطيحي وتبسيطي"²¹.

ومن جهة أخرى فإن هذا الخطاب الإقصائي العنيف تُجاه الجالية المسلمة في أوروبا يظهر إلى السطح تحت غطاء الأمن ومكافحة العنف والإرهاب، على غرار ما تقوم به حركات سياسية عديدة على رأسها اليمين المتطرف، هذه الخطابات في الحقيقة استدعاء ضمني لئرجسية التفوق الحضاري وتهميش الآخر، " لأن هذا اليمين الراديكالي يُحيل دوما مشكلة اللأمن والإجرام إلى الحضور المكثف للأجانب وعدم قدرة هؤلاء الأجانب على الاندماج والتمفصل مع المبادئ التي بنيت عليها الحضارة الغربية"²².

ولكن رغم هذه الأسباب التي تحتمل التصديق والتكذيب في آن واحد، فإنها من الوجهة المنطقية لا تمثل المشكلة الرئيسية للأمن والسلام في دول أوروبا. وإنما تظهر هذه الخطابات العدائية كمبررات للفشل السياسي التنظيمي والعجز عن بسط أسس ديموقراطية تضمن الرفاه الإقتصادي المحلي وتكفل حقوق الأقليات المشاركة لحيز المواطنة، بغض النظر عن الأصول التاريخية والثقافية لها.

2.4 خطاب المرأة الغربية والمرأة المسلمة:

تباين وجهات النظر حول موضوع " الحرية النسوية واللباس " بين المرأة الغربية - الإيطالية بالخصوص- التي تعيش بمنطق الحداثة والانفتاح و المرأة العربية المرتبطة بتراث ديني عربي إسلامي يفرض على المرأة شروطا وضوابط تحكم حياتها وتحركاتها، ولذلك عندما استدعت " صوفيا " صديقتها الإيطالية " أنجيلا " لاستشارتها في أزمة الطلاق التي حلت بها، راحت هذه الأخيرة تحثها على استعادة حريتها والخلاص من الحجاب و من تقاليد الذكورة العربية، فتقول:

" لقد حان الأوان يا صوفيا كي تتحرري من هذه التقاليد الذكورية البالية وتتخلصي من هذا الحجاب الملعون " لترد عليها المصرية صوفيا قائلة: " لا أعتقد أن الفتيات اللواتي يظهرن عاريات في المجلات أو نصف عاريات في التلفزيون هن حرات حقا. إنهن ضحايا النموذج الإستهلاكي الذي يحول جسد المرأة إلى مجرد سلعة."²³

تدور هذه الخطابات المتضاربة بين صديقتين، تُحاول الأولى نُصح الثانية غير أن اختلاف المرجعيات الدينية والفكرية التي تحتكم إليها كل من الصديقتين أفضت بهما إلى الإختلاف، فإذا كان الحجاب في نظر " أنجلا " من التقاليد البالية التي تُعيق المرأة عن مُمارسة حياتها، فإن الجسد الأنتوي المكشوف في اعتقاد " صوفيا " ضحية لنماذج تجارية استهلاكية، ما يجعله مُندرجا في سلسلة " الغرائبية والتدجين والإقصاء والتهميش {التي} هي بعض من مفردات القمع التي يتعرض لها الآخر. لكن الآخر هنا، ونحن نتحدث عما يجري في إطار الحضارة الصناعة الغربية، ليس فقط الإنسان غير الغربي، بل هو أيضا الجسد والأنثى، وهما يتعرضان لكل هذه الضغوط التي ذكرناها، ويتعرضان أيضا للإقصاء والتسليع"²⁴.

وإذا كانت مشاكل المرأة العربية مُلخصة في الزواج والطلاق وختان البنات وهيمنة الذكوري على الأنتوي فإن مصاعب المرأة الإيطالية لا تخلو كذلك من بعض العراقيل كمشكلة

الأمومة، ومشكلة العلاقة مع الرجل، وفي هذا الإطار يسوق لنا الروائي خطابا على لسان " صوفيا " يبرز أكثر مسألة الاختلاف بين المرأة العربية والغربية، تقول " صوفيا " عن صديقتها أنجلا:

" أنجلا ليست متزوجة. ولكنها تعاشر رجلا هو في نفس الوقت أبو ابنها. لا تناديه أبدا: " زوجي " وتكتفي بكلمة: " رفيقي ". لهذا فهي رفيقة وليست زوجة. يقيمان تحت نفس السقف ويقتسمان نفس السرير، ولكنهما غير متزوجين ؟ هذه المسألة معقدة قليلا بالنسبة لمسلمة مصرية مثلي... الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتصور نفسي في مكانها أي أن أعيش مع رجل وأنجب منه بلا زواج. بالنسبة لي هذا من رابع المستحيلات، قد أقع تحت طائلة الزنا والعياذ بالله "25.

لا تتعلق إذن إشكالية " رؤية العالم " لدى الأجناس البشرية بطبيعة الثقافة الراهنة الحاضرة لتفاعلاتهم (الثقافة الإيطالية)، وإنما بـ " البنى الذهنية " و " الإمتدادات الثقافية الأصلية " التي يُعاد تفعيلها في لحظات الأزمة والصراعات على تخوم الثقافات.

من خلال هذه الخطابات على لسان صوفيا يطرق الروائي " عمارة لخص " موضوعات مهمة متعلقة بالمرأة " إذ يضطلع السرد بمهمة فضح المسكوت وكسر نمطية الأحكام الجاهزة، خاصة ما يتعلق منها بخطابات المرأة الواردة بكثرة وفي شكل موازنات بين حياة المرأة الشرقية والمرأة الإيطالية "26. التي وردت في صغية القبول تارة وعدم القبول بوضعية الآخر تارة أخرى.

3.4 الخطاب الذكوري والخطاب الأنثوي:

من بين الخطابات الأكثر ورودا في ثنايا الرواية، الخطاب الذكوري والأنثوي، حيث تعود الساردة " صوفيا " إلى حيثيات زواجها من المهندس المهاجر " فيليشي " وهي ترجمة لاسمه العربي " سعيد "، عملت " صوفيا " الفتاة المصرية الطموحة الراغبة في تحقيق حلمها في أن تصبح " كوافيرة محترفة "، على دراسة اللغات الأجنبية في الجامعة حتى أتقنت الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وبما أن مصير حلمها في الوطن العربي سيؤول حتما للفشل؛ فقد رأت في زواجها من " المهاجر " سعيد نافذة أمل تفتح لها باب المستقبل، ولكن بعد هجرتهما إلى روما تغيرت المعطيات إذ يفاجئ سعيد خطيبته صوفيا بشرط الحجاب، تقول:

" لم يدم حماسي طويلا. للأسف الشديد، الواقع أقوى من الأحلام. قبل أيام قليلة من الزواج، طلب مني الباشمهندس ارتداء الحجاب.

قلت إيه ؟ ما سمعتش كويس. ممكن تقول تاني اللي قلته دا لو سمحت ؟.

لازم تلبسي الحجاب يا روجي.

...

ارتداء الحجاب؟ ربما لم أفهم جيدا. هل سنستقر في روما أم في طهران؟ هل الحجاب إجباري في روما؟²⁷.

تَمَلَّك " صوفيا " حسرة كبيرة من جراء خطاب " الباشمهندس " المُصْر على ارتداءها للحجاب وهي التي كانت ترى فيه سبيل خلاصها من " ثقل التقاليد العربية "، ها هو يصير الخصم والحكم في آن واحد، ما أدى بها إلى مُحاولَة الدفاع عن رأيها وتقديم الحجج والبراهين المنطقية، فترد قائلة:

" كنت وكأني محامية شغوف منهكة في الدفاع عن طفل بريئ متهم بجريمة قتل، قلت له إني أقيم الصلوات الخمس يوميا منذ بلوغي العاشرة، لا أنسى أبدا إعطاء الصدقة للفقراء والمحتابين، أصوم شهر رمضان المعظم كل عام، تنقصني فريضة الحج حتى استكمل الفرائض الخمس ... بالعربي الفصيح، أعتبر نفسي مسلمة صالحة حتى بدون حجاب. كان كلامي واضحا ومعقولا، ولكن على من تقرأ زبورك يا داوود ؟"²⁸.

هذا التحول الطارئ في مسار المهاجرة المصرية "صوفيا" جعلها تفكر بجديّة في فسخ خطوبتها، ولكنها تتراجع عن ذلك نظرا لمعرفتها السابقة ببنية المجتمع العربي الثقافية، والتمثيلات التي يحملها عن المرأة، لذا قررت مواصلة المغامرة وخوض جولات أخرى من الصراع فيما بعد الزواج، تقول عن هذه القضية:

" بعد أن باءت كل محاولاتي بالفشل، فكرت في فسخ الخطوبة، لكنني تراجعت عن الفكرة لأنها محفوفة بالمخاطر. خفت من كلام الناس ومن ألسنة السوء"، " قررت تأجيل المرافعة عن الحجاب إلى ما بعد الزواج. كنت أعتقد أن القضية لم تُحسم بعد، ولديّ آمال في ربحها. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"²⁹.

كانت صوفيا تعتقد أن خطيبها المهاجر "سعيد" قد تخلص من عبئ الموروث والتقاليد، وتشبّع بقيم الإنفتاح والحوار بما أنه يعيش في إيطاليا، لكنها تُصدم ببقاءه على عقلية الرجل الشرقي المهيمن على البيت الساعي إلى فرض سلطته ورقابته على الزوجة، ففي لعبة الزواج

يَعْمَدُ الرجل إلى نوع من التربية " التي تعتمد على تلقين المرأة تذليل رغبتها لخدمة الرغبة التي تقهرها وتتيح للرجل أن يزرع فيها رغبته هو بالذات، مُخِيلًا إليها أن الرغبة هي رغبته"³⁰. وبالتالي امتلاك زمام سلطة البيت والعائلة.

من جهة ثانية يتكأ " سعيد " على أحكام الدين الإسلامي الذي يفرض على المرأة المسلمة نوعا من اللباس " الحجاب " لصون كرامتها وحفظ عرضها، ولكن " صوفيا " لا ترى ضرورة لارتداء الحجاب بما أنها تقيم فرائض الإسلام منذ الصغر، وأن اللباس ليس إلا قطعة قماش تغطي الجسد، وليست دليلا على الإيمان والعفة. وعليه يتراوح خطاب " صوفيا " وزوجها " سعيد " بين الأصولية والعقلانية.

لم تكن نظرة " صوفيا " الفتاة العربية الحاملة نابعة من صميم ومنطق السياق الراغبة في الإنتقال إليه، ولا من البنية الفكرية للرجل الشرقي المهاجر، وإنما من ذاتها المنفصلة عن الموضوع، فلو كان زوجها المهاجر " سعيد " مُنسجما مع الثقافة الإيطالية لما اضطر إلى انتقاءها زوجة له، بمعايير وخلفيات متطابقة مع ثقافته الداخلية الأصيلة، ومن هنا نستنتج أن أزمة الخلاف بين " صوفيا " و " سعيد " هي أزمة " بدائل ثقافية " أو " أزمة وهم البدائل الثقافية "، فرغبة " صوفيا " في التملص من " ثقل التقاليد المصرية "، يقابلها تملص " سعيد " من أزمة " الثقافة المؤقتة " في إيطاليا، في شبه " إنعكاس رغبات "، وهذا التضاد في المسارات انعكس على علاقتهما التي انتهت بالطلاق.

4.4 الخطاب العنصري بين الإقصاء والمقاومة:

يعاني أغلب المهاجرين من مشاكل التمييز العنصري بشتى أنواعه، ففي يوميات الفضاء المشترك مع الآخر الأوروبي، وبمجرد أي موقف بسيط، لا يتوانى الآخر عن ازدراء المهاجر والإنتقاص من قيمته وتذكيره بهويته، وتهديده، بل قد يمتد فعله إلى أشكال العنف الأخرى وهو ما حدث مع " صوفيا " عندما ذهبت لاقتناء بعض الخضروات، تقول:

" سبقني رجل في الخمسينيات من عمره. في البداية ظننته لم يرني ولكنني كنت مخطئة. لقد فعلها عمدا. نظر إلى باستخفاف ووقاحة وقال لي:

جئت قبلك؟ هل تفهمين الإيطالية؟

أنا أفهم الإيطالية جيدا. أنت قليل الأدب.

مُومياء وتتكلم؟ لماذا لا ترجعين إلى بلادك؟ لماذا تأتون إلى هنا لاختلاق المشاكل وتدير التفجيرات؟

أنت غبي.

إذهبي أنتي وبرقعك إلى أفغانستان. إذا لم تنصرفي حالا، سأفقد صوابي وأشبعك ضربا.

دفعني الغبي بيده ففقدت توازني وسقطت "31".

لم يكتفي الرجل الإيطالي بنعت "صوفيا" بمختلف النعوت السلبية، بل تعداها إلى الدفع الجسدي، ما يبين عمق العداة العنصري الذي يكنه هذا الإيطالي للمهاجرين، وقد اعتمد هذا الرجل في عنصريته اتجاه "صوفيا" على عاملي اللغة والدين لتأكيد غيريته عن المهاجرين، وانغلاقه على هويته الإيطالية، وعدم قبوله للتعايش مع الهويات الأخرى المختلفة عن هويته وثقافته ولغته.

هذه الخطابات العنصرية لا تتفعل إلا في الفضاءات البينية، أين يتجلى الآخر بوصفه غريبا وغير مرغوب فيه، "فالهويات ليست مجرد إنشاءات خطابية ناشئة في التفاعلات المحلية. إنها تعكس وتُشكّل بطريقة مُعقدة إيديولوجيات وتمثيل للأدوار والعلاقات التي تتجاوز السياق المباشر للتفاعل، والتي غالبا ما تصبح واضحة فقط عندما تتجاوز حدود الخطاب المحلي"32.

إن أغلب التمثلات التي يحملها الأوروبي عن الإنسان غير الأوروبي تعود في معظمها إلى تلك الدراسات الأنثروبولوجية التي صاغها علماء الغرب عن أصول الثقافات والأجناس، مبرزين من خلالها تفوق الثقافة الغربية المنحدرة من خصوصيات عرقية ووراثية راقية، على خلاف ثقافات البلدان الهامشية غير الأوروبية (تفوق العرق الآري على العرق السامي)، وهو ما يشير إليه الناقد "صامويل هنتنجتون" بقوله: "في أوروبا الغربية مُعادة السامية الموجهة ضد العرب حلت بدرجة كبيرة محل مُعادة السامية الموجهة ضد اليهود"33.

ولكن العقل الأوروبي يضع نفسه في تناقض رهيب مع نفسه " فيقدر ما يدعو إلى الإعتراة بالطابع الكوني لمفاهيم من بنات ثقافته وحدثته، مثل الحرية والمساواة والديموقراطية وحقوق الإنسان، يسجن نفسه في خصوصيات هويته الثقافية الضيقة، ويتمادى في إقصاء ثقافة الآخرين وتهميشها، إلى حد يبدو فيه أن هوية الغرب الثقافية بصفة عامة مسكونة بعقدة التفوق والإستعلاء على ما سواها من الهويات الثقافية الأخرى"34.

يقوم هذا الرجل الإيطالي برسم صورة نمطية للمهاجرين على أنهم سبب المشاكل والتفجيرات-رغم أنه هو من تسبب في افتعال الشجار-فمثل هذه الصور لا تنطلق من حيثيات الواقع وإنما من خلفية ثقافية لها جذور عميقة في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب وهذا ما يقلل من مصداقية الحكم " فبقدر ما يكون الإنتقال من التمثلات المنمطة إلى خصوصية الأوضاع الإجتماعية الثقافية، تكون الصور والأحكام أقل قطعاً وأكثر تردداً ونسبية"³⁵.

ومن أجل ذلك شعرت " صوفيا " بالظلم تجاه الأقليات، وراحت تقارن بين سياسة التشديد على المحجبات، وفي نفس الوقت قبول العاريات والنصف عاريات بصفة عادية دون أي مشكلة، تقول "صوفيا":

" هذا ليس عدلاً. ماذا عن التعاليق الفضفاضة حول الديموقراطية وحرية التعبير والحق في الإختلاف في إيطاليا؟"³⁶.

والواضح أن المسألة لا تتعلق بالحجاب كلباس فقط، وإنما بالحجاب بوصفه ثقافة وهوية وانتماء، وهذا الإتهام من بين التحديات التي يعيشها المهاجرون بصفة متكررة، " فكل أقلوي، إثنيا أو دينيا، متهم حتى يثبت العكس. ومن أين له أن يثبتته، وكيف؟ فهذا مما لا يقدر عليه، حتى ولو تنازل، أحيانا، عن هويته ذاتها"³⁷.

ولكن هذه الممارسات العنصرية من طرف الإيطالي المحلي على المهاجر الأجنبي لم ترغم " صوفيا " على التخلي عن هويتها أو إنكارها بل دفعت بها إلى تعلقها بحجائها أكثر فأكثر باعتباره علامة من علامات هويتها، تقول:

" صحيح أنني لم أختره في البداية ولكنه صار رمز هويتي بل جلدي الثاني. يجب أن لا أكتفي بقبوله وإنما علي أن أدافع عنه أمام الملأ. لم يعد الأمر مسألة حجاب أو لباس أو قماش بل قضية كرامة. إذا لم يقبلوا بحجابي، فهذا يعني أنهم يرفضون ديني وثقافتي وبلدي الأصلي ولغتي وعائلي ووجودي في هذه الحياة، وهذا لا أقبله أبدا."³⁸.

يعتبر هذا الموقف الدفاعي الذي اتخذته " صوفيا " ضد المتعصب الإيطالي نوعاً من الحفاظ على الهوية وخوفاً من فقدانها نتيجة التهديد الذي شعرت به، ففي الخارج كما يقول المفكر المصري حسن حنفي " تزداد الهوية الأصلية انغلاقاً دفاعاً عن النفس كرد فعل طبيعي للأقلية تجاه الأغلبية. وتظهر الحركات السلفية لدى المهاجرين وهم وسط الحضارة الغربية،

حضارة الحداثة. ويزداد التمسك بمظاهر الهوية: اللحية والجلباب والحجاب والنقاب³⁹. فكلما زادت حدة النقيض ازداد الشيء تماهيا وانغلاقا على صورته الأصلية.

تُعد هذه الخطابات العنصرية دليلا على التعصب والتطرف الذي يطال الجالية العربية في فضاءات الآخر الأوروبي، كما أنها تبين بوضوح أن تلك الشعارات الرنانة التي يتغنى بها الأوروبيون عن حرية الاختلاف والتعدد ما هي إلا غطاء يخفي تحته حزمة من العقد التاريخية والثقافية ضد الآخر المختلف.

5. خاتمة:

- يتمظهر الخطاب المضاد في رواية "القاهرة الصغيرة" باعتباره استراتيجية كتابية تهدف إلى رفع الوصاية التمثيلية، والتحرر من سوء التمثيل، وإعادة تشييد الكينونة الحقيقية للذات وفقا لما هي عليه، بعيدا عن التحيزات الثقافية والإسقاطات التشويهية.

- تتوزع عبر حوارية تضم مجموعة من الخطابات المتضاربة، الإعلامية، الذكورية، الأنثوية، الدينية، العنصرية... المتراوحة بين الاعتدال والتطرف، القبول والرفض، الإحتواء والإقصاء، والمنتقلة من المركز للهامش ومن الهامش للمركز، تنهض هذه الخطابات في عمومها على مخزونات تاريخية ثقافية مُترسبة في اللاوعي الجماعي للشعوب، تعود للظهور إلى السطح في لحظات الصراع والأزمة.

- جسّد الروائي عمارة لخص من خلال هذه النماذج الخطابية نوعية العلاقة التي تطبع حياة المهاجرين المسلمين مع أنفسهم، ومع غيرهم من الأعراق والهويات الأخرى، كما أقدم على مناقشة وتفكيك عديد الصور النمطية التي يحملها كل طرف عن الآخر، ملتزما في ذلك الحوار المنطقي المُأسس على رؤية أكثر انفتاحا للآخر الأوروبي وأكثر فهما لطبيعة العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب في ظل التحولات السياسية والثقافية والتاريخية المختلفة.

مراجع البحث:

¹-طارق بوحالة: تمثيلات المهاجر في الرواية الجزائرية المعاصرة، المجلة الثقافية الجزائرية، تاريخ النشر: 2017/01/12، تاريخ الإطلاع: 2018/10/10، رابط المقال: <file:///c:/users/admin-pc/desкто>

- ² -محمد بوعزة: سرديات ثقافية-من سياسات الهوية إلى سياسات الإختلاف، منشورات الإختلاف، ط1، الجزائر، 2014، ص 59-60.
- ³ -لونيس بن علي: إدوارد سعيد-من نقد خطاب الإستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية. كيف نؤسس للوعي النقدي، دراسة نقدية، دارميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص 322.
- ⁴ -نادر كاظم: تمثيلات الآخر-صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، لبنان، 2004، ص 453.
- ⁵ -عبد الله إبراهيم: الهوية والسرد والإمبراطورية، اشتغال مفهوم التمثيل عند إدوارد سعيد، ضمن كتاب: إدوارد سعيد-الهجئة، السرد، والثقافة، منشورات القرن 21، الجزائر، 2016، ص 101.
- ⁶ -محمد شوقي الزين: الذات والآخر-تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، لبنان، 2012، ص 181.
- ⁷ -عمارة لخص: القاهرة الصغيرة، منشورات الإختلاف، ط1، الجزائر، 2010، ص 10.
- ⁸ -سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي-إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، مراجعة: سمير الشيخ، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ص 72.
- ⁹ -ميشال فيفيوركا: التعددية الثقافية-مفهوم يجب إعادة بنائه، مجلة الإستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، بيروت، لبنان، العدد 10، 2018، ص 102.
- ¹⁰ -هوغ لاغرانج: نكران الثقافات، تر: سليمان رياشي، مراجعة: أحمد مراد وسعود المولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، لبنان، 2016، ص 26.
- ¹¹ -عمر بوجليدة: فكر الهجئة والوعي بالآخر-السرديات العنصرية والمثقف المقاوم، ضمن كتاب: إدوارد سعيد-الهجئة، السرد، والثقافة، ص 98.
- ¹² -المرجع نفسه، ص 88.
- ¹³ -هومي.ك.بابا: موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر، 2004، ص 44.
- ¹⁴ -إسماعيل مهنانة: العرب ومسألة الإختلاف-مآزق الهوية والأصل والنسيان، منشورات القرن 21، الجزائر، 2016، ص 153.
- ¹⁵ -لونيس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الإستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ص 69.
- ¹⁶ -الرواية، ص 88.
- ¹⁷ -محمد شوقي الزين: الذات والآخر-تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، ص 60.
- ¹⁸ -الرواية، ص 88-89.
- ¹⁹ -شاهين جاك: الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية، تر: خيرية البشلاوي، مر: أحمد يوسف، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، مصر، 2013، ج1، ص 63.
- ²⁰ -جورج طرابيشي: صورة الأخرى في الرواية العربية-من نقد الآخر إلى نقد الذات في أصوات سليمان فياض، ضمن كتاب: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 1999، ص 810.

- ²¹-محمد نور الدين أفاية: الغرب في المتخيل العربي، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، ط1، الشارقة، 1996، ص 13.
- ²²-محمد شوقي الزين: الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، ص 45.
- ²³-الرواية، ص 191.
- ²⁴-هيلين توماس، جميلة أحمد: الأجساد الثقافية-الإثنوغرافيا والنظرية، تر: أسامة العزولي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، مصر، 2010، ص 16.
- ²⁵-الرواية، ص 95-96.
- ²⁶-حياة أم السعد: انشطار الهوية وتبئير الهامش-"عمارة لخص" من هجنة الفضاء إلى سردية الرد، ضمن كتاب: العين الثالثة-تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، تقديم: وحيد بن بوغريز، ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص 50.
- ²⁷-الرواية، ص 38.
- ²⁸-الرواية، ص 39.
- ²⁹-الرواية، ص 39-40.
- ³⁰-الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 37.
- ³¹-المرجع نفسه، ص 115.
- ³²- Anna De Fina: Identity in Narrative, A study of immigrant discourse, John Benjamins publishing company, Amsterdam/Philadelphia, 2003, p185.
- ³³-صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، سطور، ط1، 1999، ص 322.
- ³⁴-عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات-حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، لبنان، 2013، ص 107.
- ³⁵-الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 34.
- ³⁶-الرواية، ص 116.
- ³⁷-أدونيس: موسيقى الحوت الأزرق، (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الآداب، ط1، بيروت، 2002، ص 207.
- ³⁸-الرواية، ص 116.
- ³⁹-حسن حنفي: الهوية-مفاهيم ثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2012، ص 29.